الحسناء

الجزء الرابع — المجلد الثاني

بيروت شهر تشرين الاول سنة ١٩١٠

كورنيليا

أمٌ عظيمة احسنت تربية ابنائها على ما يناسب زمانها واعتنت بتعليمهم غاية الاعتناء . فهذبت عواطفهم بشرف مبادئها واثارت عقولهم بسمة مداركها ودرّبتهم على الفضائل بالقول والعمل . فرفعت امانيهم باباء نفسها وعززتهم بما فيها من الشهامة وحسن التدبير . وكانت ترافقهم بملاحظاتها وترشدهم بسديد ارائها وتدرّسهم سير الابطال والحكماء وتمكنهم من معاشرة اعظم المعاصرين ولا تذخر وسعاً في سبيل ترقيهم . واقفةً نفسها عليهم تاركةً كل شيء من شؤون الحياة الا هم ومهتمةً فقط بجعلهم من خيرة خدام الوطن وبالتالي من الخالدين في التاريخ

أمٌ ضرب المثل بحسن عنايتها بابنائها وما زال اسمها حيّاً من الفي ومئة سنة . والناس يكرمونه ويزيدون باكرامه كلما تقادم عهده

هي كورنيليا الرومانية ذات المجد الخالد في تاريخ الرومان . مثال الزوجة الفاضلة والام الحكيمة . احدى مفاخر بنات جنسها ما طال المدى . معزّزة المعارف مكرّمة العلماء . الشريفة الاصل والفعل . الجميلة الخلق والخلق . سلالة اسرة شيبيون العظيمة مؤيدة دعائم الوطنية عند الرومان

ولدت هذه السيدة في رومية في اواخر القرن الثالث قبل المسيح وترعرعت في احضان المجد وعلى اسرة الشرف . وتدللت في حداثتها وتغنجت ماشاءت ككلّ الاميرات وبنات الاغنياء. ولكنها تربت جيداً وتعلمت كفاية ووافقها استعدادها الطبيعي المجيد فامتازت على اترابها وعدّت زهرة الرومان. ولم تعكف على الملاهي وتستأنس بالرفاهة كغيرهـا من امثالها بل آثرت الجد والعمل واهتمت بالترقي المستمرّ الى ان بلغت مقاماً سامياً احلها صميم القلوب

وكان ابوها شيبيون الافريقي وعمها شيبيون الاسيوي قائدين عظيمين تولّيا قيادة الجيش الروماني مرات عديدة وحاربا انيبال القرطجني وانطيوخوس الكبير ملك سوريا وغلباهما وخلصا رومية من شرّ هائل ولذلك نُسب الاول الى افريقيا والثاني الى آسيا واشتهرا بهذين اللقبين. وكانت أسرتها تحب المعارف وتكرم ذويها فيتهافت اليها العلماء حتى من بلاد اليونان وينزلون في منازلهـا على الرحب والسعة وقد سعى والد كورنيليا بعدل حامي حمى العلوم

فاحرى اذا ممن كانت مثلها ان تنشأ منشأها والا فما هو فضل التربية والتعليم ؟

ولما بلغت كورنيليا ربيع العمر واشتهرت بالذكاء والادراك مع العلم والفضل جاءها الامراء يطلبونهـا زوجةً فكان اسعدهم حظّاً سمبرونيوس غراقس القائد المشهور الذي تولى رئاسة الدولة الرومانية مرتين وهو منجد شيبيون الافريقي في محاربته لانيبال وصده عن رومية ومتولي قيادة الجيش مكانه عندما جرح عند نهر تيسينيو على حدود لومبارديا. ويقال ان هذا ازوجه ابنته مكافأةً له على هذا الامر وقيل ايضاً ان ذلك لمدافعته عنه ضدّ ما اتهم به زوراً وبهتاناً ولتبرئته اياه بيراهين أيدت الحق

على انه كيفما كان السبب فلا هو ندم ولا هي ندمت بل عاشا على احسن ما يكون من انواع العيش . وكان الزوج كلما ازداد معرفةً بفضائل زوجته

ازداد محبة لها وهياماً بها الى ان صار يجلها ويكرمها غاية الاجلال والاكرام

ويروى عن عظم محبة سمبرونيوس لكورنيليا انه فادى بنفسه لاجلها ومات ليحييها . وذلك ان حيتين دخلتا مرةً بيته فتشاءم منهما وسأل الكهنة عن رمز دخولهما فاجابوه ان خطراً وبيلاً يتهدد العائلة لكن نصفه يزول بقتل احدى الحيتين فاذا قتل الذكر كان رمز موت الزوج واذا قتلت الانثى كان رمز موت الزوجة . فحالاً امر سمبرونيوس بقتل الذكر لما رآه من افضلية بقاء زوجته لتربية اولاده ولما كان لها بقلبه من المحبة والهيام . وهكذا اتفق فانه ما طال عليه الزمن حتى توفي هو كما قال المؤرخ فلوتارخس

فحسب كورنيليا هذا الامر المؤثر برهاناً على المنزلة السامية التي كانت لها في قلب زوجها مما تتمناه لكل زوجة . وحسبها تأثراً منه انها لم ترض بعد ترملها ان تقترن باحد على ان كثيرين طلبوا يدها ومنهم بطلميوس ملك مصر سائلاً اياها مقاسمته لبس التاج وابهة الملك . بل فضلت التفرغ لتربية ابنائها تحقيقاً لامال زوجها وتأييداً لحسن ظنه بها . وهي قد رُزقت ذرية من الاولاد اي اثنا عشر ولداً واغمضت اعين الجميع بيديها فذاقت اثني عشر كاساً من الثكل امرَّها الكأسين الاخيرين لدى قتل ولديها البطلين تيباريوس وكاريوس

ومن الغرائب ان تعتني الام بتربية الابناء مثل اعتناء كورنيليا بابنائها ويتقصفون في اوائل عمرهم كالاغصان الندية واحداً بعد الاخر ولكن يظهر انها لم تحسن العناية بتربيتهم الصحية احسانها للادبية والعلمية او للقلبية والعقلية

فتوفي اكثرهم صغاراً ولم يبق منهم الى سن الشباب سوى ثلاثة فقط وابنة . فكانوا عذاءها الوحيد الى حين . فاهتمت بتربيتهم اهتماماً عظيماً واستدعت لتعليمهم افضل العلماء ووضعت نصب عينيها غاية وحيدة الا وهي ترقيتهم الى المناصب العالية بالشجاعة والشرف

ويروى عن شدة اهتمامها بهم انها كانت مرة في مجلس اخذت سيداته تتباهى بما تملك من الجواهر والحلى وكلٌّ منهن تعرض ما عليها وتصف ما عندها الا كورنيليا فظلت صامتة فسألتها ان تريهن حلاها فادارت ولديها تيباريوس وكايوس وقالت ـ هذه حلاي

ومن هذا يُستدل على ما كانت عليه من الفضل والحكمة بعظم محبتها لاولادها ووفرة عنايتها بهم . وحسبها انها كانت تغذي نفوسهم دائماً بافضل الاراء واحسن المبادىء كما قال المؤرخون مما كان حينئذ شائعاً بين الطبقة العالية في رومية

ولذلك لما كبروا واشتهروا نالوا من المجد والثقة بهم ما زاد امهم رفعةً ومجداً فاقترن البطل شيبيون اميليون فاتح قرطجنة بكريمة كورنيليا فاشتهرت مدة بكونها حماة شيبيون فكانت تقول لولديها تيباريوس وكايوس انا ارغب في ان ادعى والدة الغراقسيين فتى تشتهران وتتمجدان حتى انال هذا اللقب

وبمثل هذا الكلام كانت تستنهض هممهم وتربيهم على الجرأة والاقدام راوية لهم سير الابطال والحكماء على سبيل التعليم لا للتسلية وقتل الوقت

فنال ابناها بفضل حسن تربيتها لهما مقاماً عظيماً بين الرومانيين اهلهما لاعظم المناصب فذهب تيباريوس الى محاربة الاسبان وهو في السادسة عشرة من عمره وافتتح مدينة حصينة بشجاعة مدهشة ومهارة فائقة الحدّ فعظمه الاعداء مثل الاصدقاء ولما طلب القائد الروماني العام عقد الصلح مع الاسبانيين عند ما باغتوه وكادوا يفتكون بجيشه اشترطوا عليه ان تكون المعاهدة على يد تيباريوس لانهم لا يثقون بسواه . وعند ما عاد هذا البطل الى رومية عرض عليه ابيوس كلافديوس احد رئيسي الجمهورية الرومانية ان يزوجه بابنته ولما اتفقا عاد الرئيس الى بيته مسروراً جداً فاخبر زوجته بتقريره تزويج ابنته وقبل ان

يذكر اسم العريس قالت له لم هذا الاسراع فلو كان العريس تيباريوس غراقس فلا بأس واما غيره فالتأني افضل

وكان تيباريوس محاميًا عن الشعب ضد مطامع الاغنياء والمستبدين فعمل اولئك على قتله وفازوا فهمّ اخوه كايوس بالتطوع مكانه لمقاومة مظالمهم فنشطته امه على الاخذ بناصر المساكين فاستلم ازمة الاحكام وناوأ الامراء والطامعين بالضعفاء فحاربوه واتبعوه باخيه

وهكذا قدّمت كورنيليا ولديها ضحيتين مقدستين على مذبح الوطنية الصحيحة بتجرئتهما على ارتشاف كأس المنون في سبيل حرية الشعب واستقلاله ولما نصب الشعب لهما تماثيل الفخر حيث قتلا قالت انهما بعدل قد استحقا هذه التماثيل . وهذا ما كانت تكرره بفخر كلما مرت بتلك الساحة

وقد اظهرت من التجلد على احتمال رزئيها ما ادهش العقول ولطالما كررت قولها اني لست تعيسة ما زلت امّ الغراقسيين

على انها آثرت الانفراد في قصر لها في ضواحي رومية بعيدة عن ضوضى المدينة ومتاعبها السياسية وحافظت على منزلة بيتها الاجتماعية فابقت ابوابه مفتوحة للادباء والعلماء والفلاسفة والحكماء ولكل عظيم وطني واجنبي كما كانت قبل ان تثكل

ولا تسلن يا سيدات عما كانت تدور عليه الاحاديث في منزل كورنيليا فانها كانت تتناول اهم المواضيع واسماها وافضلها لترقية العقل وتنويره وتدميث الخلق وتهذيب النفس

ولما توفيت هذه الام العظيمة نصب لها الرومانيون تمثالاً نحاسيًا تخليدًا لذكرها حسبًا كما خلدته بفعالها معنويا